مدخل الأصول
التاريخية للنظرية الاجتماعية

يمكن تحديد الأصول التاريخية للنظرية الاجتماعية في ثمانية مصادر: نظرية ابن خلدون الاجتماعية، سياسة عدم التدخل، الاقتصاد السياسي، مذهب المنفعة البريطاني، الوضعية الفرنسية التطورية المتأخرة، المذهب التاريخي الألماني، البراجماتية (الفلسفة العملية) الأمريكية وعلم النفس الاجتماعي. وكل من هذه المذاهب أو الاتجاهات النظرية والمنهجية تشكل بصورة أو أخرى المصادر الأساسية للنظريات الاجتماعية السائدة في الوقت الراهن. وسنتناول فيما يلي كلاً من هذه المصادر بشيء من التفصيل، وعلاقة كل منها بالنظريات الاجتماعية الحديثة.

١ - نظرية ابن خلدون الاجتماعية

يرى ابن خلدون في مقدمته أن دراسة الظواهر الاجتماعية ترمي إلى الكشف عن القوانين التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها وتطورها، وما يعرض لها من أحوال. ولم يفطن أحد قبل ابن خلدون إلى جبرية الظواهر الاجتماعية وخضوعها لقوانين ثابتة مطردة كالقوانين التي تخضع لها ظواهر الطبيعة والرياضة، ولم يعلن أحد من قبله الكشف عن هذه القوانين (وافي: ١٩٨٤: ٢٠٩)، (عبدالمولى: ١٩٧٦: ٣٦).

وهناك ثلاث طرق اتبعها الباحثون قبل ابن خلدون في دراستهم للظواهر الاجتماعية.

١- الطريقة التاريخية التي يقتصر أصحابها على وصف الظواهر، وبيان ما هي عليه بدون استخلاص شيء من هذا الوصف. وقد سار على هذه الطريقة جميع المؤرخين مثل ابن حزم وسواه.

٢- طريقة الدعوة إلى المبادئ التي تقررها الظواهر الاجتماعية وتقرها معتقدات الأمم ونظمها وتقاليدها وبيان محاسنها وترغيب الناس فيها. وقد سلك هذه الطريقة علماء الدين والخطابة والأخلاق وبعض الباحثين مثل ابن مسكويه والغزالي وابن قتيبة الدينوري.

٣- طريقة التوجيه إلى ما ينبغي أن تكون عليه الظواهر الاجتماعية بحسب المبادئ المثالية التي يرتضيها كل الباحثين، كما فعل أفلاطون في كتاب الجمهورية والقوانين، وكما فعل أرسطو في كتابه الأخلاق والسياسة، والفارابي في أهل المدينة الفاضلة. ولكن ابن خلدون قام بخلاف سابقيه بتحليل الظواهر الاجتماعية تحليلاً يؤدي إلى الكشف عن طبيعتها والأسس التي تقوم عليها والقوانين التي تخضع لها، أي أن تدرس كما يدرس العلماء، ظواهر الفلك والطبيعة والكيمياء، ووظائف الأعضاء... إلخ، وهذا يبين أن ابن خلدون قد هدته مشاهداته وتأملاته العميقة لشؤون الاجتماع الإنساني إلى أن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية الظواهر في الكون، وأنها محكومة بقوانين طبيعية كالتي تحكم ما عداها من ظواهر الكون... ومن ثم رأى أن تدرس هذه الظواهر دراسة وضعية كما تدرس ظواهر العلوم الأخرى للوقوف على طبيعتها، وما يحكمها من قوانين. وعلى هذا البحث وقف دراسته في المقدمة (وافي: ١٩٨٤: ٢٠٨ ٢١٢)، (بوتول: ١٩٦٤: ٢٠).

وقد اعتبر ابن خلدون البيئة الجغرافية دعامة مهمة لمختلف الظواهر الاجتماعية حتى إنه لم يغادر أي ظاهرة اجتماعية إلا جعلها مدينة لهذه البيئة في صورة ما. فإن البيئة الجغرافية في نظره يرجع السبب في اختلاف البشر في ألوانهم وميولهم ونشاطهم العام وكثير من صفاتهم الجسمية والخلقية، ولهذه البيئه دخل كبير في تمييز المجتمعات بعضها عن بعض من حيث التقاليد والعادات والعلوم والأفكار والانفعالات وشؤون الأسرة ونظم الحكم والسياسة والأخلاق وسائر أنواع الاجتماع. وتبعه في ذلك العلامة مونتسكيو في كتابه روح القوانين حيث بالغ في آثار البيئة الجغرافية، وجعل منها السبب الرئيس في اختلاف الأمم في شؤون الشرائع والقوانين والتقاليد والعادات، ومستوى الحضارة وشكل الحكومة ونظم السياسة والأفكار والحرب والأخلاق ومبلغ كثافة السكان وتخلخلهم (وافي: ١٩٨٤: ٢٥٦، ١٥٧).

ويشير ابن خلدون إلى العلل الأصيلة التي تجعل الناس يتحدون للعيش مجتمعين، وهو يدل على اثنتين منها فالأولى هي عامل التعاون الاقتصادي. والثانية عوامل الأمن التي تحمل الناس على اجتماع القبائل، أو على اجتماعهم في المدن حتى يستطيعوا دفع العدوان عن أنفسهم.

إن أفكار ابن خلدون النظرية السابق ذكرها واعتبار الظواهر الاجتماعية محكومة بقوانين طبيعية لا سبيل للإنسان إلى تعديلها شكلت الأصول لنظرية دوركايم في اعتبار الظواهر الاجتماعية أشياء، ودراستها من خارج ذواتنا وكذلك تعتبر أساس الوضعية لدى أوغست كونت وليندبرغ وآخرين.

ومن جهة أخرى شكلت أفكاره ضرباً من التبشير بمبادئ المادية التاريخية، إذ ذكر حرفياً أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلهم من المعاش. وترى جبرية ابن خلدون كثيرة الملاءمة للرأي القائل باستخراج خطوط التاريخ الكبرى من طراز معاشها ومن أحوال بيئتها حتى إنه يقال إنه يفرط في عد هذا المعاش آلياً (بوتول: ١٩٥٠: ٤٨).

ويعتبر بوتول أن من أهم أعمال ابن خلدون عمل رائع هو علم الاجتماع الوضعي يتضمن الأساس لعلم اجتماع حقيقي يتعلق بمنطقة شمال أفريقيا ولا يزال عدد كبير من سماته يطبق اليوم على التركيب الاجتماعي لتلك المنطقة (بوتول: ١٩٦٤: ٢١).

٢-٤ : نظريات سياسة عدم التدخل LAISSEZ - FAIRE، الاقتصاد السياسي POLITICAL ECONOMY ومذهب المنفعة UTILITARIANISM

هذه النظريات ذات طابع فردي Individualistic، وتنظر إلى الكائنات البشرية بأنها عاقلة تحسب باستمرار وتصطفي من الخيارات التي قد تزيد من سعادة الفرد أو منفعته وتقلل من ألمه وخسارته. ويعتبر أوضح مجال لتطبيق هذه النظريات عالم التجارة حيث تؤكد نظرة علماء الاقتصاد للإنسان الاقتصادي Economic Man إلى الخيارات المحسوبة للإنسان.

وعندما انتقل أصحاب النظريات السابقة من مستوى الفرد وبدؤوا يبحثون عن تفسير للمجتمع أو البناء الاجتماعي " ظهرت لديهم نظرية العقد الاجتماعي Social Contract إذ افترضوا أن الكائنات البشرية تتصرف بعيداً عن المصلحة الذاتية الرشيدة بل تدخل في طواعية في اتفاق واع يحدون فيه من الاستقلال الفردي ويؤسسون حكومة، ويتفقون على الالتزام بالقواعد " التي يضعونها لضبط الصراع المتهور وتكفل الحد الأدنى من التعاون. وهذه الضوابط يجب ألا تكون شديدة لأن تشجيع الأفراد على السعي وراء مصالحهم الشخصية يكفل رفاه المجتمع.

ويرى سميث Smith في كتابه ثروة الأمم The Wealth Of Nations أن رفاه المجتمع يتحقق على المدى الطويل بصورة أفضل عن طريق تشجيع الناس أو إتاحة الفرصة لهم للسعي لتحقيق مصالحهم الخاصة والأنانية. وأن الأفراد قد يسهمون في تحقيق الخير الأعظم للمجتمع وإشباع حاجات الناس الآخرين من خلال الأفعال التي تحقق مصالحهم الشخصية.

وليس بالضرورة أن يدرك الأفراد معظم الوقت إسهام أفعالهم في الصالح العام. وقد كان سميث مقتنعاً بأن الذين يدَّعون رغبتهم في الصالح العام لا يقومون بهذا الفعل كأولئك الذين يسعون لتحقيق المصالح الفرديه الخاصة بإخلاص.

إن تأثير السياسة العامة لعدم التدخل اتضح إلى حد ما في النظريات الخاصة بالجمهوريين المحافظين، كما أن المفارقة النظرية بأن أفعال الأفراد تسهم في المخرجات الاجتماعية الواسعة التي قد لا يكون هؤلاء الأفراد مدركين لها والتي قد تكون على النقيض من النتائج المقصودة (المنشودة) هي مبدأ أساسي في النظرية الوظيفية المعاصرة. إن المدخل الفردي وافتراض أن الناس يقومون بأفعالهم عن قصد ومن خلال الاختيار الرشيد لكي يزيدوا من أرباحهم هو أيضاً من المقومات الأساسية في النظرية التبادلية المعاصرة.

٥- الوضعية الفرنسية التطورية المتأخرة

POST EVALUATIONERY FRENCH POSITIVISM

يمثل هذا الاتجاه سايمون S. Simon وكونت A.Conte في النصف الأول من القرن التاسع عشر ودوركايم E. Durkheim في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وتشير كلمة وضعية Positivism إلى اتجاه تجريبي نحو المعرفة. ويتضمن هذا الاتجاه أن كل معرفتنا مستمدة من التجربة الحسية أو البيانات المستمدة من إلخبرة. وهذا يعكس تحولاً من القبول التقليدي للإلهام والعرف بوصفه مصدر المعرفة التي تعتبر أكثر عمقاً من البيانات الحسية وتعتبر الأفكار الدينية والوحي بالنسبة للوضعيين مجرد خرافات وهم مقتنعون بأن العلم سيحل مكانها. ويتضمن العلم أدوات لجمع البيانات التجريبية ويهدف إلى الكشف عن القوانين الطبيعية. والقانون الطبيعي هو تقرير عن علاقة مطردة بين الظواهر التجريبية.

ويعكس نمو علم الاجتماع في فرنسا الاعتقاد بأن المجتمع أو الحياة الاجتماعية جزء من الطبيعة، وتحكمها القوانين الطبيعية التي يمكن اكتشافها من خلال تطبيق

نفس الطرق العلمية في البحث كما تستخدم في العلوم الأخرى. وعندما تكتشف تلك العلوم يمكن استخدامها أسساً للإصلاح وإعادة التنظيم في المجتمع. كما أن النظام الاجتماعي والتقدم يمكن أن يستندان إلى المبادئ العلمية. ويمكن للأمن والوئام أن يحلا مكان الحرب والصراع والجهل والخرافات.

ويمكن أن تؤدي الحكومة الوطنية دوراً رئيساً في برنامج إعادة التنظيم الاجتماعي. لذا على موظفي الحكومة أن يعملوا وفق القوانين الطبيعية التي يتوصل إليها علماء الاجتماع. هذا عن كون عالم الاجتماع مستشاراً للحاكم اعتنقه كونت بصورة مبالغ فيها حسب تصوره الشخصي أن يمثل هذا العالم مركزاً مسيطراً بالمقارنة بالبابا في المجتمع الصناعي الوضعي في المستقبل. وقد راود نفس هذا الحلم دوركايم، وإن يكن ذلك بدرجة أقل حيث عبر عن هذا الحلم بإنشاء أساس علمي راسخ للتربية الخلقية. وهناك صورة من هذا الحلم ما زالت باقية إلى اليوم لدى أولئك الذين يعتقدون بأن العلم يمكن أن يحمينا من خلال تقديم حلول لمشكلاتنا الاجتماعية المختلفة، أو يمكن أن يقدم التوجيه في مساعدتنا في أداء أعمالنا بوصفنا كائنات بشرية.

إن رؤية دور الحكومة في إعادة التنظيم الاجتماعي تختلف عما تؤكده سياسة عدم التدخل في الاقتصاد السياسي البريطاني فبينما بقي مبدأ عدم التدخل في صورته المعدلة في التبرير الأيديولوجي لنظام الأعمال (المشاريع) الحرة، فإن المثالية الوضعية لإصلاحات التنوير تتجلى اليوم في برامج اجتماعية لتوجيه الناس Orienting People تبذل فيها جهود جادة تراعى فيها النتائج الحديثة في العلم الاجتماعي. وأحد الأمثلة تتجلى في استخدام وسائل تقويم السلوك لإعادة التأهيل في جناح الأحداث.

٦- المذهب التاريخي الألماني

على العكس من الوضعية الفرنسية ركز المذهب التاريخي الألماني التقليدي على الفصل بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية. فالقوانين الطبيعية تحدد الوقائع في العالم الطبيعي، ولكن العالم الإنساني هو عالم الحرية والخيارات الإرادية وليس قوانين

طبيعية حتمية. والافتراض بأن الكائنات الإنسانية تخضع لنفس أنواع القوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية يعني إنكار الحرية الإنسانية.

ولا يقتصر الأمر فقط على سمو الكائنات البشرية على عالم الحتمية العلمية، ولكن عدم فهم السلوك الإنساني والثقافة الإنسانية يتضمن أنواعاً مختلفة من الاستبصار من فهم القوانين في العلوم الطبيعية. ولفهم السلوك الإنساني أو تفسيره فإن الأمر يتطلب أكثر من مجرد وصف مظاهره (تجلياته) الخارجية. وبدلاً من ذلك من الضروري النفاذ إلى معناه، أي إدراك التوجيهات الذاتية ومقاصد الأفراد. ولفهم ديناميات المجتمع من الضروري للمحلل الاجتماعي النفاذ إلى ثقافته من الداخل والتجربة الذاتية لرؤية عالمه الخاص، وأفكاره، قيمه ومعانيه.

إن هذا التركيز يعكس تراثاً صناعياً قوياً في الفكر الاجتماعي الألماني تجلت ربما لدى هيجل Hegel. وقد أكدت المثالية Idealism كنظرية فلسفية حقيقة عالم الأفكار وأهميتها في الحياة الإنسانية. إن الاستبصار في المعاني الذاتية أو أفكار العالم الثقافي غير ضرورية لفهم حركات الأجسام الطبيعية وتفسيرها ولكنها أساسية لفهم السلوك الإنساني.

وفيما يتعلق بهذا التأكيد على الثقافة اعتبر المؤرخون الألمان أن كل مجتمع فريد (متفرد)، ويمكن فهمه فقط من خلال تقاليده (موروثاته) الثقافية.

وهذا يختلف عن افتراضات الوضعية الفرنسية من حيث إن القوانين الطبيعية العامة التي يمكن اكتشافها باتباع المناهج العلمية تحكم جميع المجتمعات. وبدلاً من البحث عن قوانين عامة دافع المؤرخون الألمان عن فهم روح مجتمع معين من خلال دراسة ثقافته الخاصة، والمراحل التاريخية المختلفة التي مر بها. وهذا لا يتضمن دراسات مقارنة. وعلى كل حال فإن مثل هذه الدراسات يجب ألا تخفي الاختلافات الأساسية بين المجتمعات.

لقد كان ماركس Marx وفيبر Weber وريثين للتراث التاريخي. وقد رفض ماركس كلياً فكرة أن القيم الثقافية والأفكار لها تأثير في السلوك الإنساني مستقلة عن أسسها

المادية. كما أن معظم الاستراتيجيات المنهجية التي وضعها فيبر انعكست في جهوده في التأكيد على الظواهر الثقافية والتاريخية باعتبارها فريدة، بينما تعامل الظواهر الثقافية المستعرضة بصورة مقارنة من أجل تأسيس علم الاجتماع بوصفه علماً عاماً.

٧-٨: البراجماتية (الفلسفة العملية) الأمريكية وعلم النفس الاجتماعي

إن الجزء الأكبر من علم الاجتماع الأمريكي المعاصر يعكس الجذور (الأصول) الأوربية التي ناقشناها. فالنظريات الأوروبية قام بإدخالها في المنظور السوسيولوجي، الأمريكي تالكوت بارسونز Talcot Parons وآخرون. إن الإسهام الأمريكي المميز يتضمن تطوير علم النفس الاجتماعي، وبخاصة منظور التفاعل الرمزي Symbolic Interationist Perspective. هذا التطور ارتبط مع مدرسة شيكاغو في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين.

ان إحدى إلخصائص المميزة للعقلية الأمريكية هو نفاد الصبر بالنسبة للأفكار إلخيالية التي ليست لها قيمة عملية (تطبيقية). وبدلاً من ذلك فإن الأفكار والذكاء الإنساني يرتبطان بصورة وثيقة بالفعل (العمل). إن الأفكار تتطور أو يتم تعلمها لوضع القرارات من أجل التغلب على مشكلات الحياة الواقعية. وتستند وجهة النظر هذه إلى إصلاحات ديوي Dewey المعروفة جيداً في طرق التعليم وفلسفته. لقد كان ديوي ناقداً لتطبيقات التعليم التقليديه، لأنها تفصل بطريقة مصطنعه مجال التعليم عن الحياة اليومية.

فالطلاب كان يتوقع أن يحفظوا عن ظهر قلب (يستظهروا) أو يتعلموا الحقائق والأفكار بدون أن يكونوا قادرين على رؤية العلاقة بين تعلمها وبين حل مشكلات الحياة الواقعية. وبدلاً من ذلك فقد دافع عن تنظيم تجارب الفصل الدراسي بحيث تعكس الحياة بدقة ما أمكن ذلك، وذلك بتزويد الطلاب بفرص لحل المشكلات الواقعية بوصفها أساساً للتعليم. وهكذا يمكن مثلاً تعلم مبادئ الديمقراطية بصورة

أفضل من خلال المشاركة في القرار الديمقراطي الذي يتخذ في الفصل الدراسي أكثر من حفظ (استظهار) إعلان الاستقلال، أو القضايا الأخرى المجردة. (إن مبادئ التعليم وممارسته حتى هذا اليوم تعكس التأثير العميق لتأكيد ديوي على التعليم من خلال العمل (الممارسة أو التطبيق). ويعرف ديوي بأنه فيلسوف في التعليم وليس رائداً في علم الاجتماع. وعلى كل حال فإن استبصاراته الأساسية من حيث الصلة الوثيقة بين الفكر والفعل شاركه فيها جورج هربرت ميد George Herbert Mead الذي ساعد في وضع أسس نظرية التفاعلية الرمزية Symbolic Interaction Perspective في علم النفس الاجتماعي.

وقد أكد ميد أن نشوء العقل البشري بوصفه مرحلة حاسمة في عملية التطور جعلت من حل المشكلات الإنسانية الصعبة أمراً ممكناً. هذه العلاقة الوثيقة بين الفكر والفعل تتلاءم مع البراجماتيه الأمريكية ونبذ التأمل الذي ليس له صلة بالموضوع.

والطابع الثاني المميز للعقلية الأمريكية التي أثرت في علم الاجتماع الأمريكي يتمثل في التأكيد القومي على الفردية Individualism. فمنذ البداية تم تشجيع قيم الفردية مقابل المطالب المتعارضة بحكومة مركزية قوية. وقد أصبح من المألوف مؤخراً توجيه النقد لنقص الفردية وما يهدد التعبير عنها. إن اهتمامنا هنا ليس صحة الانتقادات هذه أو المدى الواسع من الطرق التي يمكن التعبير عنها عن الفردية في المجتمع الأمريكي الحديث. وبدلاً من ذلك نلاحظ أنه بسبب هذا التأكيد على الفردية فليس من المستغرب أن الإسهام المميز لرواد علم الاجتماع الأمريكي كان نظرة محدودة المستوى Micro Level للحقيقة الاجتماعية... كما أن هناك تأكيداً على البناءات الاجتماعية ذات المدى الواسع مع ديناميتها المتميزة التي تطورت في علم الاجتماع الأمريكي، ولكن هذا التطور تأثر كثيراً بالرواد الأوربيين.

كما أن العقلية الأمريكية تؤمن متفائلة بالتقدم والوعود بالإصلاحات الاجتماعية التي تستند إلى التخطيط. وهذا يرتبط بالتأكيد على البراجماتية التي سبق ذكرها. ولا

يعتقد جميع علماء الاجتماع الأمريكيين أن الإصلاحات الاجتماعية المبنية على التخطيط ضرورية للتقدم. فالدارونيون الاجتماعيون مثل سمنر Sumner يعتقدون أن التقدم ينشأ من عملية تطور طبيعية، وأن الإصلاحات المخططة ليست ضرورية لهذه العملية. في الحقيقة كان هناك شك في إمكانية تحقيق مثل هذه الإصلاحات بنجاح وفق الخطة، وبخاصة إذا كانت تتناقض مع الطرق الشعبية ومعايير المجتمع.

وكان الاهتمام بالنسبة لكثير من علماء الاجتماع الأمريكيين الأوائل ينصب على المشكلات الاجتماعية، وكانت الرغبة في الإصلاحات الاجتماعية المدخل إلى علم الاجتماع.

هذه المشكلات كانت أساساً خاصة بتلك الأقليات داخل المدينة التي أثرت بشكل مطرد في تدفق الجماعات المهاجرة المختلفة، هذه الجماعات بدأت حياتها في البلاد الجديدة في قاع السلم الاقتصادي الاجتماعي. وبصرف النظر عن جماعات مهاجرة معينة، فإن المناطق الداخلية في المدينة وجدت فيها أكبر معدلات من الجريمة والجنوح، والبطالة، والتفكك الاجتماعي والمساكن غير الصحية.

باختصار فإن علم الاجتماع الأمريكي كان منذ البداية يتسم بالبراجماتية الفردية والتفاؤلية. إن المنظور السوسيولوجي المعاصر يعكس أصوله الأمريكية المحلية بالإضافة إلى الأفكار التي انتقلت من أوروبا، وبخاصة مذهب المنفعة البريطاني والاقتصاد السياسي والوضعية الفرنسية والمذهب التاريخي الألماني.

إن أياً من المنظورات المعاصرة المختلفة أو المصادر الأولى لم تعط إجابات نهائية. وعلى كل ففي ضوء الطبيعة المتغيرة باستمرار للواقع الاجتماعي لا توجد نظرية سوسيولوجية محددة تصف بكفاءة الحقيقة الاجتماعية بكل تعقيداتها وتفسرها بحيث تحقق الانغلاق الفكري (أو نهاية الفكر) (Johnson: 1981: 23 - 27).

المراجع

* المراجع العربية

- بوتول، جاستون. *ابن خلدون فلسفته الاجتماعية*، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٥٥م.
- بوتول، جاستون. *تاريخ علم الاجتماع*: ترجمة محمد عاطف غيث وعباس الشربيني، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤م.
- عبدالمولى، محمود. *ابن خلدون وعلوم المجتمع*، ليبيا تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٦م.
- وافي، علي عبدالواحد. *عبقريات ابن خلدون*، ط ٢، جدة: شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ ١٩٨٤م.

* المراجع الأجنبية

- Johnson, Doyle ; Sociological Theory ; Newyork: John Wiley And Sones, 1981.